

مجلـة

آداب الرافدين

علمية محكّمة فصليَّة

تصدر عن كلية الآداب

العدد: الخامس وسبعون

السنة: الثامنة والأَربعون

الموصـل

١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م

توجه المراسلات باسم رئيس هيئة التحرير

كلية الآداب / جامعة الموصل – جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@gmail.com



آداب الرافدين

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانية باللغة العربية واللغات الأجنبيَّة

العدد: خمسة وسبعون   السنة: الثامنة والأربعون

قواعد النشر في المجلة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطراً تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضي هيئة التحرير مبلغ (٣٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العددين المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار .
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول .
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأنَّ البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال – إن اختلف الخبيران – إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر .
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيطة والحذر من الأغاليط والتصحيفات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة.

((هيئة التحرير))

المحتويـات

صورة صلاح الدين الأيوبي في شعر ابن الدهان الموصلي (ت٥٨١هـ)

م.د. جرجيس عاكوب عبدالله الراشدي*

تأريخ التقديم: ٢٠١٨/٨/١٢ تأريخ القبول: ٢٠١٨/٩/١٧

توطئة:

تعددت صورةُ (صلاح الدين الأيوبي) في شعر (ابن الدهان الموصلي)، وتنوعت معانيها، مما يدل على براعة الشاعر وحذاقته، إذ شكلت شخصيتُهُ محورًا أساسيًّا في شعره، زاد من ثراء قصائده وجمالها، وتكشف الصورة عن ((تواصل مقصودٍ مع الواقع، وأحداثه، بأدوات فنية ذات قيم تثير الانفعال))(١)، لتقريب صورة الواقع الشعري من ذهن المتلقي، بحالات إنسانية، وانفعالات وجدانية تعمل على إخراج الصور والمعاني بإطار موضوعيٍّ؛ لأنها ((تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الإذهان))(٢)، إذ وظف الشاعر الصورة؛ لتوضيح معانيه وأفكاره.

تكمن خصوصيةُ البحث في شخصية صلاح الدين الأيوبي التي كانت محط أنظار الشعراء وقبلتهم، بوصفه قائدًا بطلًا، وكريمًا شجاعًا، في زمن الحروب الصليبية، جعل منَ الشعر مرآة ذاته، وسجل أحداث عصره، وناطقه الإعلامي، إذ ضَمَّ مجلسُهُ مشاهير شعراءِ عصرهِ وخيرة كتَّابهِ فيه؛ لتخليد مآثره وانتصارته، لأن الشخصية ((أبرز ميادين الصورة، وهي نشاطٌ ذهني يتشكل

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل .

(١) الصورة الشعرية عند ابن الدهان الموصلي: د. مقداد خليل قاسم الخاتوني، مجلة آداب الرافدين، العدد ٦٩، سنة ٢٠١٤، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٧٣.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني (ت: ٦٨٤ هـ)، تحقيق: محمد بن الحبيب ابن الخوجه، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦ ، ١٢٠.

باللغة شرطه الأساس أنْ يكون معبرًا عن مكنونات النفس بإخراجها عبر تفاعل متوازن بين حسِّ الشاعر، وإدراكه))[١]، والصورة التي نبحث عنها ذات سمة موضوعية دلالية تكشف معاني الشاعر وأفكاره في التركيب والتشكيل، لأن الشاعر ((يدُلي بشهادةٍ لغوية عن مرئيٍّ / منظور، أو معنويٍّ يدرك بالحسِ والشعور، ويتمحور حول الذات والجوهر))[٢]، لترتكز الصورة / الشهادة في تراكيب لغوية وألفاظ يرسم الشاعر بها صورًا تجسد شخصية الممدوح بقيمها ودلالاتها المتفاعلة مع واقع الحياة، يلتمسها الشاعر بلغة شعرية، ورؤية واعية، لتصبح ((وسيلة حتمية، لإدراك نوعٍ متميز من الحقائقِ، تعجز اللغة العادية عن إدراكه وتوصيلة، وتصبح المتعة التي تمنحها الصورة قرينة الكشف والتعرف على جوانب خفيَّة من التجربة الإنسانية))[٣]، لتعبر اللغة الشعرية عن إحساس الشاعر وعاطفته بالصورة، ومحمولاتها الدلالية، ومضامينها الموضوعية، وقيمها، لأنَّ الصورة في جَوهرها ((رسم قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة))[٤]، فالجملةُ الشعرية لم تعد وسيلة للتفاهم والخطاب، بل هي لوحة فنية تُرسمُ بها الأحداثُ والمواقفُ.

وبعد قراءة ديوان (ابن الدهان الموصلي) وجدنا حضور صلاح الدين الأيوبي حضورًا فاعلًا ومتميزًا في شعره، حفزنا للوقوف على صوره التي رسمها

---

(١) الصورة الشعرية عند ابن الدهان الموصلي: ١٧٤.

(٢) البطل في شعر علي بن خلف الحويزي (ت ١٠٨٨هـ – ١٦٧٧م)، د. شريف بشير أحمد، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، المجلد الثامن، العدد الثاني، ٢٠٠٩ م، ١٥٦.

(٣) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: د. جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، القاهرة ١٩٧٣، ٣٨٣.

(٤) الصورة الشعرية: سي دي لويس، ترجمة: أحمد نصيف الجنابي، ومالك ميري، وسلمان إبراهيم، مراجعة: د. عناد غزوان إسماعيل، مطبعة مؤسسة الخليج، الكويت ، منشورات دار الرشيد ببغداد، سلسلة الكتب المترجمة ، ١٩٨٢م ، ٢٣.

له بالكلمات، التي تبعث الجمال في النص الشعري وتزينه، بالدلالة الموضوعية وقيمها الدلالية، والمعاني وأنساقها والصور وأنواعها.

١- صورةُ صلاح الدين الأيوبي شجاعًا:

تعد الشجاعة والبطولة من الفضائل التي أحبها الإنسان، وصورة صلاح الدين الأيوبي البطل الشجاع من الصور المتواترة في شعر ابن الدهان الموصلي، ومن أقسامها ((الحماية والدفاع، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدو، والمهابة، وقتل الأقران، والسير في المهامه الموحشة، وما أشبه ذلك))[(١)]، فكانت صورة الفارس المغوار، الذي يبطش بالأعداء ويهزمهم، ومن هذه الصور تهوين شأنهم بهلعهم، وصورة البطل القوي، الذي استبسل في الدفاع عن ديار المسلمين وملكه، وزرع الثقة في القلوب بالحكمة والدهاء في إدارة المعارك وقيادتها، وصورة عِظم الهمة وثباتها، وصورة عزة النفس وقوتها، فهذه الصور كلها تتدرج ضمن المعنى الأشمل لصورة الشجاعة، التي تنوعت في شعره وانصهرت في الصورة الكلية التي تصبُّ في نسق الشجاعة ومعانيها.

قال ابن الدهان الموصلي[(٢)]:

فإذا تنمَّر قال للأرْضِ ارجعي ... بالصَّاهِلات وللجّبالِ تَزَعْزعي

وإذا عَلا في المجْد أَعْلا غايَةٍ ... قالَتْ له الهِمَمُ الجسَامُ تَرَفَّعِ

ثَبْتُ الجَّنانِ إذا القُلوبُ تطايَرتْ ... في الرَوْعِ يَعْدِلُ أَلفَ أَلفَ مُدرَّعِ

جَمعَ الجيوشَ فَشَتَّ شَمْل عِداتِه ... ما فرَّق الأَعداءَ مِثْل تَجمُّعِ

لم يثْنِهِ عن نَصْرِهِ خُلَفاءَهُ ... عِظَمُ العَدوِّ ولا بعادُ الموضعِ

---

(١) نقد الشعر: أبو الفرج، قدامة بن جعفر(ت: ٣٣٧ هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٩٨.

(٢) ديوان ابن الدهان: (أبو الفرج مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلي)، حققه وأعد تكملته: عبدالله الجبوري، مطبعة المعارف، بغداد، ط ١ ، ١٩٦٨، ٣٠-٣١.

**بجحافلٍ مثْلِ السُّيولِ تَدافَعتْ		وإذا السيولُ تدافَعت لم تُدْفَعِ**

**والطَّيْرُ مِنْ ثِقَةٍ بأَكْلِ مُشْبعٍ		تَبِعَتْ جُيوشَكَ فوق غابٍ مُسْبعِ**

حضرتْ شجاعة صلاح الدين الأيوبي في شعر ابن الدهان الموصلي حضورًا متواصلًا ومتراكبًا، أخرجها في صورة النمر يفترس الطرائد للدلالة على بسالتِهِ وقوته، وصورة الفارس البطل الذي يخوض المعارك بحنكة ومهارة، وصورة القائد الذي يستبسل في الدفاع عن الأرض، وصورة المروءة في إغاثة المسلمين في الشام ومصر من بطش الصليبيين، لذلك تعبر الصور مجتمعةً عن ((قوة وشجاعة فائقة في الوصول إلى المعتدي والقضاء عليه، وعن مروءة تتمثل في حزمه في القول والفعل، وفي صبرِهِ وجَلَدِهِ وتضحيتِهِ في مواجهة الظروفِ))[١]، إذ ظهرت شجاعته بصولة خيوله التي ترتجف الأرض من تحتها؛ لكثرتها وقوتها، وتتزعزع الجبال منها خوفا ورعبا، وشكلت ألفاظ الجمع وصيغه (الصاهلات، والجبال، والهمم، والجيوش، والأعداء، والسيوف)، دلالة واضحة على شجاعته وقوة جيشه وكثرته (الجيوش، والجحافل، والسيول) التي فتكت بالأعداء وأرهقتهم، حتى وثقت الطيور الكواسِرُ بنصره فلحقت جيشه لتأكل من جثث أعدائه حتى تشبع لكثرة القتل الذي لحق العدو، فهو فارس يعدل ألف ألف فارس مدرع لثباته، وهذه المبالغة خيالية فيها خروج عن الأعراف المألوفة، لإثارة التخييل في ذهن المتلقي؛ ولتأكيد شجاعته وإثباتها، فلا يعرف الخوف أو الوهن سبيلا إلى قلبه، ولا يجدُ الضعف طريقا إلى عقله، إذ فرق أعداءَه بجيش كالسيل الجارف الذي لا يُبقي ولا يذر، وشكلت ألفاظ (تنمر، وعلا، وثبت الجنان، ولم يثنه)، قوة صلاح الدين الأيوبي وثباته؛ للدلالة على شجاعته في قيادة المعركة وبراعتهِ في إدارة الحرب مع أعدائه.

(١) البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام: د. مؤيد اليوزبكي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٨م، ٨٩ .

وتبلورت صورة النسب العريق لصلاح الدين الأيوبي وشجاعته في شعر ابن الدهان الموصلي، في قوله[١]:

مـن دَوْحـةٍ شـاذيّةٍ أرِجـتْ لهـا الـد ... نيـا لِطِيـبِ شـذىً لهـا مُتَضـوّعِ

المعْرِضـين إذا تعـرَّضَ مَطْمـعٌ ... والمُقْبلـينَ إذا دَعَـوْا فـي مَفْـزَعِ

والنَّـاثِرين الهـامَ يَبْـرقُ بيضُـه ... والخـارِقين مُضـاعَفاتِ الأَدْرُعِ

قـومٌ إذا يَقَـعُ الصَّـريخ تَبـادَروا ... نَحْـوَ الحِمـامِ بكـلِّ أَبْلَـجَ أَرْوَعِ[٢]

لا يَغْـرُرَنَّ الـرومَ بُعْـدُ دِيـارهم ... إنَّ الخلـيجَ لـديْكَ أَقْـربُ مُشْـرَعِ

لـو أنَّ مِثْـلَ البحْـر سَـبْعةُ أَبْحـرٍ ... مِـنْ دُونِهِـمْ وأَزدْتَهـم لـم تَمْنَـعِ

يقتنص الشاعر من النسب صورة شجاعة صلاح الدين الأيوبي وبطولته؛ فأظهره من أسرة أنجبت ملوكًا وأمراءَ وقادةً، (تبادروا) في قهر الصليبيين وهزيمتهم، وهو فعل إرادي جماعي للقوم يتشاركون فيه، فلم تعد ديار الروم في زمن الأيوبيين في مأمن من شجاعتهم وفروسيتهم، فهم (المعرضون) عن الغنائم لعزةٍ في نفوسهم، وهم (المقبلون) في الشدائد لأنهم أصحاب نخوة ومروءة عند الفزع، لأنهم ((أبطال آلوا على أنفسهم أن لا يلقوا وجه ربهم إلا بما يرفع النفس قدرًا أمام خالقها، ويأبون الرذائل حتى لو قدم لهم البقاء))[٣]، وشكلت ألفاظ الجماعة (الناثرين، والخارقين)، ركائز قوة قومه وشجاعتهم في مقاتلة الأعداء التي تغنى بها الشاعر في رسم صورة صلاح الدين الأيوبي، فهو شجاع من قوم شجعان نسبًا وبطولة يتناسلونَ بسالةً ومروءةً وشدّةً.

---

(١) ديوان ابن الدهان: ٣١-٣٢.

(٢) الحِمام: قضاء الموت وقدره. ينظر : لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين ابن منظور(ت: ٧١١هـ)، دار صادر، دار بيروت، بيروت، لبنان، ط٣ ،١٤١٤هـ، ١٢ / ١٥١، مادة (حمم).

(٣) البطل في شعر الحروب الصليبية (٤٨٩-٥٨٩هـ): د. عاصم عبد دواح، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، العراق، بغداد، ط١، ٢٠١٠، ٦٨.

وجمع الشاعر بين فضيلتي الشجاعة والكرم لرسم صورة صلاح الدين الأيوبي، ومزج بينهما لتكتمل الصورة عند المتلقي، إذ قال ابن الدهان الموصلي(١):

كَريمٌ على العافِين كالغَيْثِ مُسْبِلاً شَديدٌ على العادِين كالليْث مُشْبِلا

وسيلٌ إذا ما المالُ أقْنى فأَجْزلا وسيفٌ إذا ما سُلَّ أفْنى وقَلّلا

فما سُلَّ إلاّ أهْلك الشِّركَ حدُّهُ ولا سُئِلَ الإحسان إلاّ تهلَّلا

حياةٌ إذا يَرضى حِمامٌ إذا سَطا قَديرٌ إذا يعفو عفيفٌ إذا خلا

وحلوٌ إذا والَيْته لَذَّ أَرْيُه لديْكَ وإنْ عادَيْته عادَ حَنْظَلا

تجمَّع فيه البأْسُ والحلمُ والنَّدى وضَمَّ إلى الفضل الغزيرِ التَّفضُلا

فردَّ جَبانًا بأْسُه كلَّ باسِلٍ وخلّى نَداهُ كل سَمْحٍ مُبخَّلا

وظَّف الشاعر الصورة التشبيهيه في تشكيل صورة الكرم لصلاح الدين الأيوبي وشجاعته، فهو كالغيث المسبل في كرمه، وكالليث المشبل في شجاعته، واستعمل حرف التشبيه (الكاف) لتكون الصورة قريبة من ذهن المتلقي وخياله، وكان للجناس أثرٌ فاعلٌ من خلال تقارب مخارج الألفاظ وتناغمها في تشكيل صورة الممدوح، وجعل الألفاظ متناسقة ومترابطة (العافين- العادين، كالغيث – كالليث ، مسبلا، مشبلا)، نشاطًا شعريًّا له إيقاعه المؤثر، في ثبات الصورة التي أكسبها دفقًا دلاليًّا ومعنويًّا(٢).

وحل البيت الثاني مكملا لمعنى البيت الأول ومتناغماً معه، فإذا أجزل كرمه أقنى، وإذا سل سيفه أفنى، وشكل الجناس الناقص بين (سيل و سيف) ، و(أقنى و أفنى) حركة محورية دائرية بين الكرم والشجاعة، وجاء البيت الرابع كاشفاً معنى الصورة المركبة، فلا يسل السيف إلا على الأعداء الصليبيين الذين

(١) ديوان ابن الدهان: ٣٩-٤٠.

(٢) ينظر: الصورة الشعرية عند ابن الدهان الموصلي: ١٧٨ .

ناصبوا الإسلام العداء، أما الإحسان / الكرم فإنه يتهلل لمن سأله أمرًا أو رجاه في طلبٍ.

ورسم الشاعر صورة صلاح الدين المركبة من نقيضين (الحلو و الحنظل) ليكشف للمتلقي حضور الآخر معه حضورا مباشرًا، وأنه حلو كالعسل إذا واليته، وحنظل مرٌّ إذا عاديته، إنَّ تكرار (البأس) له قوة وحياة ، ولخصمه موت وذل، وتجمعُ هذه الصورة البأس والحلم مع الندى، حتى يرجع الفارس من أعدائه جباناً طريداً يطوقه الذل والهوان، فكرمه لا تُقاسُ به سماحة الكرماء.

وتشكلت الصورة من نسقين متوازيين ومتجاورين ومتلازمين، نسق العطاء (الكرم)، ونسق اللقاء (الحرب)، والنسقان فيهما تكامُلٌ في الفعل، بمحمولاته التأويلية التي ينفرد بها دون غيره.

وجاءت شدة بأس صلاح الدين الأيوبي نقطة انطلاق للشاعر في رسم الصورة؛ إذ قال ابن الدهان الموصلي(١):

إذا همَّ بالأَعْداءِ أخْلا بِلادَهم   بجيشٍ إذا ما بأْسُه مَلأَ المَلا

وكانت حِمىً أرضُ الفِرنْج فأصْبحتْ   سَبيلًا لأَبْناء السَّبيلِ مُذلَّلا

خَشوا أنْ يُلاقُوا جحْفلًا كلَّ فارسٍ   يعدّونَه منه خَميسًا وجَحْفلا

ولو أنَّهم أَضْعافهم حين جمَّعوا   جموعَهمُ ما كدَّروا لكَ مَنْهلا

وهابْوكَ حتى الفارس الشَّهم مَنْ رأى   بجيْشِكَ نارًا أوْ تأمّل قَسْطَلا

ولو أنَّهم كالرَّملِ أو عددِ الحَصى   لَما بَيَّنوا إذْ عاينُوكَ كَلا وَلا

رسم الشاعر صورة صلاح الدين الأيوبي شديد البأسِ في المعركة، فجعلَ بطشته تدخل الرعب في قلوب أعدائِه، وهم في ديارهم، فكيف بهم في المواجهة ؛ لتمكن جيشه من بسط سيطرته على الأرض، فالرعب دخل إلى قلوب فرسان الجيش الصليبي عندما رأى جيش صلاح الدين الأيوبي، فإذا بهم يلوذون

(١) ديوان ابن الدهان: ٤٢-٤٣ .

بالفرار والهزيمة، وقد أظهرت هذه الصورة قوة صلاح الدين الأيوبي وجيشهِ ومهارتهم في مواجهة الصليبيين، فمن مظاهر قوة القائد ((الحنكة العسكرية، التي تبدو في حسن الاستعداد، وبراعة التنظيم، والتخطيط السليم للمعركة...ومع الحنكة العسكرية شدة الصولة على الأعداء، والبطش بهم)) [١]، وصور الشاعر ذلك بالأفعال التي جاءت بنسق المخاطب الفردي القوي (همَّ، أخلا، ملأً)، وأما صفات الأعداء فحلت بنسق جماعي فيه الضعف بالفعلين (خشوا، وهابوك)، وجاءت الصورة مباشرة في (هابوك، عاينوك)، وبضمير الجمع الغائب في (بلادهم، وأضعافهم، وجموعهم)، وكلها إشارات صريحةٌ على قوة صلاح الدين وشجاعته التي أبهرت الأعداء، وأذهلتهم، وجعلتهم أشتاتًا بين القتل والهزيمة.

وأكد الشاعر ابن الدهان الموصلي شجاعة صلاح الدين الأيوبي وجيشه في واقعة بيسان[٢]، فقال [٣]:

وفي يَومِ بَيْسانٍ سقَيْتَهمُ الرَّدى ... وغادَرْتَ أَخْلافَ المنيّة حُفَّلا[٤]

وَطيْتهمُ رغْمًا فلم يُغْنِ حَشْدَهم ... ومن ذا يَردُّ السَّيلَ من حيثُ أقْبلا

بخيْلٍ إذا أوليتها النَّجمَ حَلَّقتْ ... إليه وإنْ أوطأتها الحَزْنَ أسْهلا

---

(١) أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع للهجرة: مأمون فريز جرار، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ط١، ١٩٨٣م،١٢٤ .

(٢) بيسان: مدينة بالأردن، بالغور الشامي، وهي بين حوران وفلسطين. ينظر: معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت ، لبنان، ط٨، ٢٠١٠م : ١/ ٥٢٧.

(٣) ديوان ابن الدهان: ٤٣-٤٤ .

(٤) يوم بيسان: يريد مدينة بيسان التي وصلها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩ هـ معه عساكر الشام والجزيرة وديار بكر، فرأى أهل أهلها قد فارقوها خوفا، فأحرقها وخربها، فاجتمع الفرنج، وعندما رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه خوفا. ينظر: الكامل في التاريخ: عز الدين علي ابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م ،٤٧٧/٩. إلى الفرنج، فعبر نهر الأردن

وضــرب يُقــدُّ البــيضَ كــالبيضِ عنْــدهُ وطعْـنٍ يُريـكَ الزُّغْـفَ بُـرْدًا مُهَلْهـلا[١]

وكـــــم أسْـــــمرٍ أوردت أوْرِدَةَ العِـــــدا وكــم أجْــدلٍ عــافٍ قريــت مُجــدَّلا

فَقسّــمتَهم فــي المُلتقــى قِسْــمَ جــائرٍ وإنْ كنْـــتَ فـــيهم عـــادلًا ومُعـــدّلا

قتـــيْلًا صَـــريعًا أوْ جريحًـــا مُضـــرَّجًا وخِـــلًّا طَريـــدًا أوْ أسِـــيرًا مُكـــبَّلا

يكشـف الشـاعر عـن صـورة شـجاعة صـلاح الـدين الأيـوبي وبطولتـه فـي دحـر جـيش العـدو، إذ سـقى الجـيش الصـليبيّ المـوت الزعـاف، فضـاقت علـيهم الأرض بمـا رحبـت، ولـم يـنفعهم جمعهـم وحشـدهم، فقوتـه مثـل السـيل العـارم الجـارف لا يوقفـه شـيء، لعظمـة جيشـه وقوتـه، بدلالـة ألفـاظ الحـرب وأدواتهـا (الخيـل، والأسـمر) التـي تـدل علـى الفعـل الجمـاعي القـوي، وجـاء الشـاعر بالأفعـال (سـقيتهم، وطيـتهم) للدلالـة علـى قـوة صـلاح الـدين وشـجاعته، فالسـقي والطـي جـاء رغـم أنـف الأعـداء الـذين تفـرَّق جمعهـم، وكـان مصـدر قـوة صـلاح الـدين خيولـه وفرسـانه التـي كانـت خفيفــة الحركــة ســريعة العــدْو، بدلالــة الأفعــال (أوليتهــا، أوطأتهــا)، فهــي تحلــق حـول النجـوم تحليقًـا مجازيًّـا لخفتهـا، وتجعـل مـن الجبـال الـوعرة سـهلة فـي الحركـة لقوتهــا وصــبرها، وجــاءت الأفعــال (ضــرب، وطعــن) للدلالــة علــى كثــرة القتــل والطعـن فـي جـيش الأعـداء، وجـاء هـذا الضـرب بالسـيوف البـيض والرمـاح السـمر التـي حسـمت المعركـة فـي يـوم بيسـان، إذ جعـل صـلاح الـدين جـيش العـدو أربعـة أقسـام لا خـامس لهـا: (قتـيلًا صـريعًا، أو جريحًـا مضـرجًا، أو خـلًا طريـدًا، أو أسـيرً مكــبلًا)، وهــي صــورة معركــة توثــق صــلابة صــلاح الــدين وشــجاعته، ونهايــة أعدائــهِ، وكشـفت آليـة التضـاد بـين (جـائر، وعـادل)، صـورة صـلاح الـدين الحربيـة التــي وزعــت مخرجــات المعركــة بالتســاوي علــى جــيش العــدو، بدلالــة الصــفة كنــت فــيهم عــادلا و(معــدلا)، كمــا أثبتــت تــاء الفاعــل فــي الأفعــال(ســقيت، وغــادرت، ووطيـــت، وأوليـــت، وأوطـــأت، وأوردت) صـــورة صـــلاح الـــدين الأيـــوبي المتحركـــة وجيشــه الناشِــطَ فــي المعركــة (الســيل، والخيــل)، لتلــتحم الصــورة وتــتلازم بــين القيــادة

---

(١) الزغف: الدروع المحكمة . ينظر: لسان العرب: ٩ / ١٣٥ ، مادة (زغف).

والجيش، فقد شكل الشاعر بهذه الأبيات صورة القائد البطل القوي الذي قهر الأعداء وأذلهم في واقعة بيسان.

ويرسم الشاعر ابن الدهان الموصلي صورة صلاح الدين الأيوبي الذي انتشل الأمة الإسلامية من سباتها وغفوتها ، برفعته وفضله، إذ قال [(١)]:

ولما ادْلهمَّ الدّهْرُ يومًا بَدا بهِ سَنَاكَ فقد أَضْحى أغَرَّ محجَّلا

وقد كانَت الدُّنيا كَشَوْهاءَ عَاطِلٍ فَصِرْتَ لها حُسْنًا وصُغْتَ لها حُلى

ولولاكَ ماتَ الفَضْلُ هُزْلا وأصبْحت رياضُ الأَماني ذَاوياتٍ وعُطّلا

يَفيضُ لمصْر نيلُها ثُمَّ يَنْثِني بَكيًّا قليلًا مِثْلما كانَ أَوَّلا

لعلَّك راثٍ للفضائِل والنُّهى فَتُحييَ مَيْتًا أوْ تُميْتَ مُعْطَّلا

بقيتَ على الإسلامِ حِصْنًا ومَوئِلًا وليْثًا وغيثًا مُسْتَهلًّا وَمعْقِلا

رسم الشاعر صورة شجاعة صلاح الدين الأيوبي برفعته وفضله، فأصبحت ديار المسلمين عصية على أعدائها، وتحققت أماني الناس، فأحياها بفيض جوده، بدلالة التركيب (تحيي ميتًا)، وتظهر الصورة اللونية تحولًا في الزمن، من الشدة إلى الرخاء، بدلالة التراكيب (ادلهم الدهر، وأغر محجلا)، وعزز الشاعر الصورة بالتضاد فأكد أن الدنيا كانت قبله (شوهاء)، فجمع شتات الناس، ووحد الكلمة والصف على محاربة الغزاة الصليبيين، فصارت الدنيا فتاة حسناء صاغَ لها الحلي بعد أن كانت عاطلًا منها على التعبير الاستعاري للصورة، فتغير الحال من الضعف والوهن إلى القوة والنصر، ومن القتامةِ إلى البهاءِ والنضارةِ، بالألفاظ التي تدل على التحول في الزمن (أضحى، وصرت، وأصبحت)، إذ كشفت الصورة أن صلاح الدين هو البطل والمنقذ، فأصبح حصنًا للمسلمين منيعًا، وأسدًا غيورًا يحمي ديارهم.

(١) ديوان ابن الدهان: ٤٥ – ٤٦.

وتنوعت صور صلاح الدين الأيوبي في شعر ابن الدهان الموصلي الدالة على شجاعته، فقال[١]:

مـا حـلَّ رَبْـعَ المحْـلِ أَغْبَـر قَاتِمًـا   إلاَّ وأَصْـبَح مـن نَـداهُ أَخْضَـرا

أو سَـلَّ يـومَ الـرَّوع أبـيضَ صـارِمًا   إلاَّ وعَـادَ مِـن الأَعـادي أَحْمَـرا

أَوْ هَـزَّ فـي الهيْجـاءِ أَسْـمَرَ ذابِـلًا   إلاَّ وآلَ بـرأْسِ طـاغٍ مُثْمِـرا

تُـردِي الكتائِـب كُتْبُـه فـإذا مَضَـتْ   لـم نَـدْرِ أَنفَـذ أَسْـطُرًا أَمْ عسْـكرا

يرتكز الشاعر في الأبيات على عدة صور يرسمها لصلاح الدين الأيوبي، ويبدأها بالصورة اللونية في تشكيل صورتي الشجاعة والكرم (أغبر ـــ أخضرا، أبيض ـــ أحمرا)، فإذا حل في أرض جرداء قاحلة تصبح ربيعًا أخضر بِكرمهِ وعطائهِ؛ أما الصورة الثانية فهي الشجاعة والقوة والتمكين في القتال، إذ يصبح سيفه الأبيض أحمرَ من دماء الأعداء لكثرة قتلهم، فقد ((آثر هذا البطل – صلاح الدين– كثرة الجهاد على كثرة الأموال))[٢]، وتبرز الصورة الثالثة بحركة صلاح الدين السريعة في تشكيل صورته في الحرب (سلَّ، وهزَّ)، إذ يوظف الشاعر الرمح – من أدوات الحرب – يطعن البطلُ به كل طاغية متجبر أو خارجٍ عن سلطانه،، وتكتمل الصورة الرابعة في قتلى جيش العدو لكثرتهم، بصيغة الجمع (الأعادي، والكتائب)، والسؤال هل كانت الكتبُ التي أرسلها صلاح الدين لأعدائه فيها التهديد والوعيد؟ أم هي قوة عسكرية أنفذها إليهم، فإذا كان جيش العدو تنهار صفوفه ويموت خوفا من تهديد الممدوح بالكتابة، فأنهم في المواجهة يولون الدبر دلالة على قوة صلاح الدين وقدرته على إنفاذ تهديده على أرض المواجهة، وبذلك تساوت الأسطر والعساكر في الفعل في بناء الصورة.

---

(١) ديوان ابن الدهان : ٥١ .

(٢) البطل في شعر الحروب الصليبية: ٦٨ .

وأخذت الحروب المتواصلة بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام مسلكًا خطيرًا بعد سقوط بيت المقدس (٤٩٢ هـ) في أيدي الصليبيين، إذ برز عددُ من القادة المسلمين الأفذاذ في الدفاع عن ديار الإسلام، مثل: نور الدين زنكي (ت: ٥٦٩ هـ)(١)، وصلاح الدين الأيوبي، فتبدل الحال.

فقال ابن الدهان الموصلي(٢):

والشامُ قد أَضحى حِمىً بك بعدما ... أَشْفَى وأَمّلْت العِدا أن تَظْفرا

أمسْى لنورِ الدين ليْلًا مُظلمًا ... حتى أتيْتَ فكانَ صُبْحًا نَيّرا

فكأَنه داعٍ أُجيبَ دُعاؤُهُ ... أَوْ كانَ خُيِّر في الورى فتخيْرا

وأتاكَ منْشورُ الخلافَةِ شاكِرًا ... لكَ أَنْ أَعدْتَ الحقَّ حيًّا مُنْشرا

وأراهم أنَّ الخلافَةَ مُقْلةٌ ... أصبحْتَ أَنتَ سَوادَها والمحْجَرا

أضْحى بَنو العبّاسِ يَضْحك مُلكُهم ... أَمْنًا وأَنتَ سَدادُهُ أنْ يُثْغرا

أخذ الشاعر يرسم صورًا شعرية متعددة لصلاح الدين الأيوبي بوصفه قائدًا وبطلًا من أبطال المنازلة في الحروب الصليبية؛ فالبطل في ((الحياة والشعر، مقاتل جسور، وشجاع مقدام وليس بمتهوِّر ولا خوَّار، فتَّاك في صراعه مع الأعداءِ... يظهرُ في الوجودِ الواقعي بكيانٍ حسي منظور، وشخصية حيةٍ؛ بوصفهِ مركزَ القوةِ المشعَّةِ))(٣)، إذ كشف التضاد بين قوله: (ليلًا مظلمًا، وصبحًا نيرا) صورة القيادة، وتحولات الزمن تحولًا إيجابيًّا، إذ أصبحت الشام صبحًا نيرًا بصلاح الدين، بعدما كانت مظلمة بدخول الصليبيين بعض مدنها ، وكان اختيار نور الدين زنكي لصلاح الدين الأيوبي لقيادة الجيش اختيارًا موفقًا

(١) هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي(ت:٥٦٩ هـ)، الملقب بالملك العادل، في بلاد الشام ومصر، عرف بعدله في رعيته، وشغوفا بالجهاد ضد الصليبيين، ينظر: الأعلام: ١٧٠/٧.

(٢) ديوان ابن الدهان : ٥٣.

(٣) البطل في شعر علي بن خلف الحويزي، ١٦٥.

وحاسمًا، وكأنه دعا الله (عز وجل) أن يهيئ له من يعيد العزة للأمة، فكان صلاح الدين هو الخيار الأمثل، وما إن اندحر الأعداء في بلاد الشام حتى قدم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (ت:٥٧٥ هـ) ببغداد شكره وثناءه لصلاح الدين الأيوبي، بدلالة كاف الخطاب (أتاكَ: لكَ – صلاح الدين) الذي أعاد للخلافة هيبتها وأمنها، وعزز ذلك ضمير المخاطب (أتيتَ، وأعدتَ، وأصبحتَ: أنتَ)، وأصبح عينَ الخلافة وسوادها، فالتشخيص بالاستعارة المكنية في الفعل (يضحك) يكشف الدور القيادي لصلاح الدين الأيوبي في معارك بلاد الشام.

ويرسم الشاعر صورة صلاح الدين الأيوبي، بمجموعة من القيم تدل على شجاعته وعظمة شخصيته ونُضْجها؛ إذ قال ابن الدهان الموصلي[1]:

**لـهُ هِمّـةٌ لا تَنْثَنـي دُونَ مُمْكـنٍ		ورأيٌ إذا مـا الـرأْيُ قـالَ نجـيحُ**

**إذا خفَيـتْ طُـرْقُ المعَـالي عـن العِـدَا		فَفيهـا ظُهـورٌ عنْـدهَ وَوضـوحُ**

**عطـاءٌ إذا شَـفَّ العَطـاءُ مَـوفّرٌ		وحِلْـم إذا خَـفَّ الحلـومُ رجـيحُ**

**هَنيئًـا لأَرضٍ حـلَّ فيهـا فإنَّـه		يسـحُّ النَّـدى منـه بهـا ويسـيحُ**

**إذا مـا أَتـى ميْتًـا مـن الفَقْـر جـوُده		فمـا هـو إلاّ عَـازرٌ وَمسـيحُ**

جاء الشاعر في رسم صورة صلاح الدين، بالتوكيد للكشف والتخصيص (رأي والرأي، عطاء والعطاء، حلم والحلوم)، فكانت بينة عنده وجلية (ظهور عنده ووضوح)، فهو ذو همة لا تكسر، وله رأي وحلم، حتى أن الأرض التي ينزل بها يفيض كرمه فيها على أهلها، ويرفع العوز والحاجة عنهم، وشكل الجناس بين (يسح ويسيح)، حركة في الصورة وفاعلية في الإيقاع؛ لأن التماثل الصوتي ((يقوي العلاقة المعنوية بين الوحدات المعجميَّة))[2]، إذ إن كرمه يقتل الفقر في الصورة والواقع؛ ليحيا الإنسان حياة كريمة، وهذه ((ذروة

(١) ديوان ابن الدهان : ١٧١ .

(٢) في سيمياء الشعر القديم (دراسة نظرية تطبيقية): د. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٢م، ٧٨.

إنسانية تتمثل في بذل المال من أجل انتشال النفس البشرية من قبضة الموت))[١]، وهو يحاكي بذلك معجزات السيد المسيح(عليه السلام) بإحياء الموتى بعد قتلهم، وتظهر جمالية الصورة بوجه الشبه بعودة الحياة الخصوبة بعد الفقر والجدْبِ.

ويقتنص الشاعر صفة الشجاعة عند صلاح الدين الأيوبي في تقسيم جيش العدو، فقال ابن الدهان الموصلي[٢]:

وِانْ حارَبَ الأَعْـداءَ أَمسى أقلُّهم طَريدًا وإمّا جُلُّهم فَطريحُ

فَريقانِ شتّى كُلُّهم بجسومِهِم جُروحٌ وفي حَبِّ القُلوبِ جُروحُ

فَيا جَبلَ العزِّ الذي هو شَاهِقٌ من المجد وُهْدٌ دُونَه وسُفوحُ

أظهر ابن الدهان الموصلي صورة صلاح الدين الأيوبي القائد المحارب الشجاع، فقسم أعداءه إلى قسمين: طريد / مهزوم وهم القلة يلحقهم الذل والهوان، وطريح / قتيل وهم الكثرة في أرض المعركة، فما عاد من جيش الأعداء فارس سليم الجسد كلهم جراحٌ لا قدرة لهم على المواجهة، وشكل الجناس بين (جروحٌ وجروحُ)، فاللفظة الأولى تدل على كثرة طعن الأعداء، وأما اللفظة الثانية فتدل على الألم والقهر، بدلالة صيغة الجمع (الجسوم، والقلوب)، ويطلق الشاعر لقب (جبل العز)، كناية عن صلاح الدين الأيوبي الذي كان عاليًا بالمجد، للدلالة على مروءته وعزة نفسه التي لا تنام على ضيم. ويرسم الشاعر صورة النصر لبني أيوب والظفر، وصلاح الدين الأيوبي جزء منهم وقائدًا لهم، فيقول[٣]:

وقَوّال إذا الأبطالُ فَرَّتْ مكانك ثَبْتة ما مِنْ بَراحِ

إذا ما لاقوا الأعداءَ عادوا بآيِ النَّصرِ والظَفَر الصُّراحِ

(١) البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام: ٧١.

(٢) ديوان ابن الدهان : ١٧٢.

(٣) ديوان ابن الدهان : ١٧٢.

بأرمــــــاحٍ محطَّمـــــــةٍ وبيـــــيضٍ　　　مُثلّمَـــــةٍ وأَعـــراضٍ صِـــحاحِ

ليفْـــدِ حَيـــاءَ وجهــكَ كـــلُّ وجْـــهٍ　　　إذا سُـئلَ النَّـدى- جَهْـمٍ وَقـاحِ

شـكلت صـورة الشـجاعة مصـدرًا مـن مصـادر البطولـة فـي بنـي أيـوب ((المتقـدةِ فـي النخبـةِ التـي تـرفضُ الحيـاةَ الذليلـةَ، والحرمـانَ المهـينَ، والتـي تُحـولُ الحيـاةَ والمجتمـعَ مـن السـكونِ إلـى الحركـة، ومـنَ الغيـابِ إلـى الحضـورِ، ومـنَ الشـقاءِ إلـى السـعادةِ)) [١]؛ لتحقيـق العدالـة وتقـويم المضـطرب، ومـا كـان ذلـك إلا برمـاحِ جيشـه وسـيوفهم، بدلالـة صـورة المعركـة (رمـاح محطمـة، وبـيض مثلمـة)، للـذود عـن العـرض والأرض، ولا يـدخل الخـور والضـعف إلـى قلـوب أصـحابها، حتـى قـال القاضـي الفاضـل فـيهم؛ ((أنـتم يـا بنـي أيـوب ... سـيوفكم آفـة نفـوس الأبطـال))[٢]، إذ كشـف مخرجـات المعركـة فـي الصـورة الكنائيـة عـن صـفة فـي القـوة والثبـات مـن الرمـاح المكسـرة، والسـيوف المثلمـة، وتظهـر هـذه الصـور شـجاعة صلاح الدين الأيوبي وقوة جيشهِ في المعركة.

* * * * * * *

٢- صورةُ صلاح الدين الأيوبي كريمًا:

لازمـت صـفةُ الكـرمِ موضـوع المـديح فـي الشـعر العربـي، بوصـفها سـمة عربيـة أصـيلة أقرهـا الـدين الحنيـف، وحثـت عليهـا السُـنة النبويـة الشـريفة، وقـد حفـظ لنـا التـراث العربـي رمـوزًا عرفـوا بـالكرم بوصـفه مظهـرًا مـن مظـاهر السـيادة والقيـادة، حتـى غـدت وتـدًا مـن أوتـاد بنـاء قصـيدة المـديح موضـوعيًّا وجماليًّـا، إذ يغـوص الخيـال فـي اسـتنطاق المفـردات والتراكيـب الدالـة علـى الكـرم ولوازمـه بصـور تماثـل الحقيقـة أو تفوقهـا مبالغـة، بتشـكيل صـور تقتـرب مـن الواقـع أو تفوقـه، وتزينـه، و((لا تحتـاج الصـور إلـى أن تكـون جديـدة لأحـداث الاسـتجابة))[٣]، فتـواردت ألفـاظ

(١) البطل في شعر علي بن خلف الحويزي: ١٦٤.

(٢) ثمرات الأوراق: ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي(ت: ٨٣٧هـ)، طبع مكتبة الجمهورية العربية، ١٣٠٠هـ، مصر، ٢/ ٥٨ .

(٣) الصورة الشعرية: سي دي لويس: ٤٤.

الكرم في المديح ودلالاته بين الشعراء حتى صارت متوارثة في القيمة والصفة، كوصف الممدوح بالغيث والبحر والسحاب.

وقد تأثر الشاعر ابن الدهان الموصلي بالشعرِ العربي، وتتبع موضوعاته ومنطلقاته التصويرية عبر العصور التي سبقته، فنهل من ذلك التراث بما يخدم تجربته الشعرية، وصورته الموضوعية، إذ قصد الشاعر إلى رسم صورة صلاح الدين الأيوبي كريما باستحضار صورة الغيث والسحب التي تدل على كرمه وسخائه، إذ قال[١]:

بنَدى فتىً لو أَنَّ جُودَ يمينهِ للغيْثِ لم يَكُ مُمسِكًا عن مَوْضِعِ

صَبٍّ بأسباب المعالي مُغْرَمٍ كَلِفٍ بأبكارِ المكَارم مُولَعِ

ربُّ المكارِمِ وُضَّحًا لم تَسْتقِرْ بِدَنَيَّةٍ يومًا ولمْ تتَمَنَّعِ

فإذا تبسَّم قال للجودِ انْدفِقْ فَيضًا ويا سُحْبَ النَّدى لا تُقْلعي

تُظهرُ الصورة صلاح الدين الأيوبي كريمًا سخيًّا بروًى تعددت مفرداتها وأجزاؤها؛ إذ شكل الكرم محورًا أساسيًا من محاور تكوين الصورة عند الشاعر، فهو صفة الممدوح، قريبة إلى قلبه يحبها؛ فيكثر العطايا بلا خوف حتى أصبحت يده غيثًا يجود بمائه بلا وجل، وقلبه يعشق المعالي والمكارم، إذ لم يخلف ملكًا أو مالا لجوده[٢] ، فجعله الشاعر سحابة ممطرة دائمة العطاء، لا تستثني موضعًا من مواضع الأرض، حتى فاق كرمه الغيث، فكانت غايته المعالي التي يرعى أبكارها شغوفا بها؛ إذ كشفت ألفاظُ الكرم ومقترباته (الندى، والجود، واليمين، والغيث، وسحب الندى) صورة صلاح الدين الأيوبي على طبيعتها وسجيتها في الكرم حتى بات جوده غيثًا عميقًا.

---

(١) ديوان ابن الدهان: ٢٩-٣٠.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين): ٣٤ .

وعقد الشاعر ابن الدهان الموصلي رابطًا معنويًا بين فضيلة الكرم / الجود، وفضيلة الشجاعة / القوة في رسم صورة صلاح الدين الأيوبي، وتعمل هذه التلازمية على دعم مصادر القوة في الصورة، فيقول[1]:

**فَضَلَ الورى بفضائلٍ لم تَتّفِقْ		في غيْرِهِ مَلِكًا ولَمْ تَتَجمعِ**

**للمُعْتفين رخاءُ ريحٍ سَجَسجٍ		والمعتدين عجاج ريحٍ زَعْزَعِ[2]**

**ومُديم بذْل النَّفس غيْرَ مُفَرِّطٍ		وكثيرُ بَذْل المالِ غَيْرُ مُضَيِّعِ**

**كم وَقْفَةٍ لك في الوَغى مَحْمودةٍ		أَبَدًا وكَمْ جُودٍ حَميد المَوْقِعِ**

ربط الشاعر بين الكرم والشجاعة في تصوير شخصية صلاح الدين الأيوبي؛ لإرهاب العدو من جهة واطمأنةِ الفقراء والمحتاجين من جهة أخرى، مما يجعل حياة الرعية كريمة بقوة صلاح الدين وكرمه، فلا خوف عليهم من الأعداء والفقر، واستعمل الشاعر عبارة (رخاء ريح) بمحمولاتها الإيجابية التي تجلب الخير بدلالة لفظة (للمعتفين رخاء)، وهم ذوو الحاجات لرفع المعاناة عنهم في عيشهم، ووظف عبارة (عجاج ريح) بسياقاتٍ سلبية على العدو بدلالة لفظة (عجاج)؛ ليدلل على قوة صلاح الدين كأنه ريح قوية تزعزع أركان الصليبيين، فجاءت الصورة مزدوجة تجمع بين الكرم والشجاعة، فمن صفات مدح القائد أن ((يجانس البأس والنجدة، ويدخل في باب شدة البطش والبسالة، فإن أضيف إلى ذلك المدح بالجود والسماحة، والتخرق في البذل والعطية، كان المديح حسنًا والنعت تامًا، إذ كان السخاء أخًا الشجاعة))[3]، وتلتصق في البيت الثالث تضحيته وصموده (مديم بذل النفس)، فهو (كثير بذل المال) لكرمه وسخائه، لكنه غير متلف له؛ لأن كرمه بلا إسراف أو تبذير أو رياء، ويؤكد البيت الرابع التلازمية بين الكرم والشجاعة، فله مواقف في مواجهة الأعداء الصليبيين، واتخذ

(١) ديوان ابن الدهان: ٢٩–٣٠.

(٢) سجسج: الهواء المعتدل بين الحر والبرد: ينظر: لسان العرب: ٢ / ٢٩٥ ، مادة (سجج).

(٣) نقد الشعر: ١٠٩

الشاعر من (كم) الخبرية منفذًا للدلالة على تعدد مواقفه البطولية والكرم، وتظهر جمالية الصورة في تلازم فضيلتي الكرم والشجاعة في الحرب والسلم في صورة صلاح الدين الأيوبي.

وشكَّل الشاعر صورة لكرم صلاح الدين الأيوبي ومجده، وكسبه للمعالي، فقال ابن الدهان الموصلي(١):

رأى أرْخصَ الأشياء حَمْدًا وإنْ غَلا ... وإنْ بَخلوا واسْتَغْلَوا الحمْدَ مُرخَصًا

ولو سُئِلَ الدّنيا نَوالاً لنُوِّلا ... ولو أنَّ مجْدًا في السَّماء سَمَا لَهُ

يُكَفِّلُهُ أرزاقَهُمْ لَتَكفَّلا ... لو انَّ الذي ولَّاه أَمْنَ عِبادِه

لخطْبٍ جَلا لَيْلًا مِنْ الشَّكِ ألْيلا ... ورأي كضوءِ الشَّمس نورًا إذا انبرى

تظهرُ الصورةُ علو مجد صلاح الدين الأيوبي وعظم كرمه، الذي ارتفع به وسما عاليا، وذلك دلالة على رفعته ومكانته، إذ كان سخيًّا، إذا سئل أعطى وزاد في العطاء، وَيَردُ التوافق في القيمة الدلالية بين (النوال)، والفعل (نوّلا)، إشارة لسعة كرمه وتواصُلِ جوده، بدلالة تكرار حرف (لو) في السياق الشعري الذي يسهم في رسم صورة صلاح الدين وقدرته في كسب المعالي من سمو وعطاء وكفالة بالمروءةِ والفعل والصفة.

وتكشف الصورة الضوئية أن له رأيًا (كضوء الشمس نورًا) في الوضوح والعلو والثبات في نوازل الدنيا وخطوبها، الذي (جلا ليلًا من الشك) به، فجعل الشاعر ضوء الشمس معادلا حسيًّا لرأي صلاح الدين الأيوبي بصورة تشبيهية تعظم أمره وتُعلنُ نباهة فكره؛ لغلبة حضور المشبه به في الذهن واقتضائه سرعة النفوذ ودفع الظُّلم والظلام، فشكلت ضابطًا وكاشفًا عن حنكته القيادية(٢)، وأظهرت صيغة الجمع (بخلوا، واستغلوا)، أنَّ أقرانه_ الملوك_ يرون الحمد غاليًا، ويراهُ صلاح الدين رخيصا وإن غلا عندهم، وجاءت صورة التضاد

(١) ديوان ابن الدهان: ٤١.

(٢) ينظر: الصورة الشعرية عند ابن الدهان الموصلي: ١٧٩.

بـين (مرخصـا) عنـد لجمـع (الملـوك)، و(غـلا) عند المفـرد(صـلاح الـدين)، لتبـرز صفة كرمهِ وكبريائهِ وتواضعهِ معًا.

ومـن صـفات الملـوك العظـام أنهـم ذوو بـذلٍ وهيبـة وسـلطان، وهـذه الصـفات متحققة في صلاح الدين الأيوبي، فقال ابن الدهان الموصلي(١):

فســأَغتدي مــن يُوسُــفيٍّ مُقْتَــدٍ   بِعزيــزِ مصْــرٍ يُوسُــفٍ مُسْتَنْصِــرا

مَلِــكٌ إذا أبْصــرتَه فَلقيتَــهُ   أَبْصــرتَ بِشْــرًا بالنَّجــاحِ مُبشِّــرا

رِدْفُ الأَكــارِمِ فــي مَــدى بــذْلِ النَّــدى   وجــزى فكــانَ السَّــابِقَ المتــأخِّرا

كســبَ المكــارِمَ فاكتســاها لابِسًــا   مُلْكًــا وكانَــتْ تُسْــتَعارُ وتُشْــتَرى

فــي وجْهِــهِ اجتمــعَ الجَّمــالُ وسَــيْفُهُ   حَتْــفٌ ألــمَّ وكفُّــه غيْــث الــوَرى

تظهـر الصـورة صـلاح الـدين الأيـوبي بابتسـامة وطلاقـة فـي الوجـهِ، وطلعـة بهيـة، كجمـال النبـي يوسـف (عليـه السـلام) عزيـز مصـر، كمـا أن صـلاح الـدين قـد أصـبح عزيـزًا فـي مصـر، وقـد أفـاد الشـاعر مـن تطـابق الاسـمين يوسـف بـن أيـوب ونبـي الله يوسـف (عليـه السـلام)، فـاجتمع الاسـم والمكـان بينهمـا، بدلالـة الصـورة البصـرية (أبصـرته، أبصـرت)، وكشـفت صـورة التضـاد المعنـى الايجـابي بـين (السـابق المتـأخرا)، فكرمـه جعلـه الأول بـين الملـوك، وإن كـان متـأخرًا عـن زمـنهم، فهـو الأطـول عمرًا معنويًّـا فـي زمـنٍ كانـت المكـارم فيـه تسـتعار وتشـترى عنـد غيـره؛ لقلّـة فـاعليتهم وضـعف كفـاءتهم، بدلالـة بنـاء الفعلـين للمجهـول (تُسـتعار وتُشـترى)، وقـد رسـم الشـاعر صـورة صـلاح الـدين الأيـوبي فـي البيـت الأخيـر بالتأكيـد علـى جمـال وجهـه، وبيـاض يـده فـي الكـرم وشـدّة سـاعدِهِ فـي القتـال بالسـيف، وهذه الدلالة تأييد تكامُلِ شخصيته بجوانبها الخُلقية والخَلقية.

---

(١) ديوان ابن الدهان: ٥٠ – ٥١ .

ويخاطب الشاعر صلاح الدين الأيوبي خطابًا مباشرًا (يا شاري المدح الثمين)، باستعمال النداء (يا) الدالة على نداء القريب، فقال ابن الدهان الموصلي(١):

يا شَاري المدْح الثمين مغاليًا لولاكَ أصبْحَ كاسِدًا لا يُشْترَى

أَفْنيْت مالك واقْتنيتَ مَحامِدًا تَبقى مَدى الدُّنيا وتُفْني الأَعْصُرا

فسموْتَ مُنْتعِلَ السِّماك وتاركًا تحت الثَّرى مَنْ مالُهُ تحت السرى

وجَعلْتَ للآدابِ رَبْعًا آهْلًا بنَدى يَديْكَ وكانَ رسْمًا مُقْفِرا

بَهرتْ صِفاتُكَ مادِحيك وطَالَما قد جاوزَ الاحْصاءَ أنْ لا يبهرا

يصور الشاعر كرم صلاح الدين بشراء المدح، فالمدح لولاه لأصبحت بضاعتُه كاسدة في سوقِ المحامد، وعزز هذا الحضور بـ(كاف الخطاب) المباشرة التي تدل على (الممدوح) بالألفاظ (لولاك، ومالك، ويديك، وصفاتك، ومادحيك)، واستعمل الشاعر لفظة (أفنيت) استعمالًا إيجابيًا، فبفناء ماله / كرمه اقتنى المحامد، وأحيا ذكرها بالشعر، وسما ذكره عاليًا، فكرم صلاح الدين وجوده جعل للآداب أرضًا خصبة تنبت فيها المكارم؛ بعدما كانت مقفرة، وبهرت صفاته الشعراء والكتَّاب فأمعنوا في وصفه وزادوهُ مَدْحًا وبهاءً. وقد شكلت (تاء) الفاعل في الألفاظ (أفنيت، واقنيت، وسموت، وجعلت، وبهرت)، صورة صلاح الدين الأيوبي المتحركة بين المحامد والمكارم فأعطت دلالة السمو بالرفعة التي تجعل ذكره حيًّا بعد موته.

ويعتمد الشاعر ابن الدهان الموصلي التشبيه المقلوب في تشكيل صورة صلاح الدين الأيوبي، إذ قال(٢):

ولاحَ الصُّبحُ يحكي في سَناهُ صلاحَ الدين يُوسُفَ ذا الصَّلاحِ

(١) ديوان ابن الدهان : ٥٢ .

(٢) ديوان ابن الدهان : ٦٢.

هَـو الملـكُ الـذي أوْرى زِنَـادي وفـازَتْ عِنـد رُؤيتـه قِـداحي
يُقـرّب جُـودُه أَقْصـى الأَمـاني ويضْـمنُ بِشْـرُه أَسْـنى النَّجـاحِ
ومبسـوطٌ بنائِلِـه يَـداه إذا قُبِضـتْ بـه أيْـدي الشِّـحاحِ
ولمَّـا ضَـاق حـدٌّ عـن مَـداهُ لَقينـاهُ بآمـالٍ فِسَـاحِ
فَمـنْ هَـرِمٌ وكعْـبٌ وابـنُ سَـعْدٍ رِعـاءُ الشَّـاءِ والـنعَمِ المـراح

فالصبح يشبهه في العلو والمنزلة، فصار ذا رفعة وقدر عالٍ، ويكمن جمال الصورة في هذا التشبيه الذي يحاكي الصبحُ فيه صلاح الدين في صفائه، بدلالة الصورة الضوئية (الصبح، سناه، أروى زنادي)، لينتج بؤرة تشع بها الصورة بشكل جلي، ويحقق المتعة الجمالية، باستثارة الآخر واستمالة عواطفه[١]. ويثبت الشاعر لقب الملك لصلاح الدين (هو الملك) دلالة على سيادتهِ وقوة سلطانه، وتتحرك الصورة البصرية لتثبت (رؤيته، ولقيناه)، صفة الكرم فيه، وتثبت الصورة الحركية (يقرب، ويداه)؛ ليحقق أصعب الأماني وأبعدها، فيداه مبسوطتان للكرم، ويؤكد تلك الصفة فيه، ويقرب الصورة أكثر من المتلقي، بحضور شخصيات تاريخية عرفت بالكرم مثل (هرم بن سنان ت: نحو ١٥ ق هـ)[٢]، وهو من أجواد العرب في الجاهليةِ يُضربُ به المثل، و(كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة)[٣]، وهو من كرماء العرب في حسن الجوار، إذ استدعى الشاعر تلك الشخصيات توثيقًا للصورة بالتراث.

(١) ينظر: الصورة الشعرية عند ابن الدهان الموصلي: ١٨٠.

(٢) الأعلام: ٨/٨٢.

(٣) الأعلام: ٥/٢٢٩.

والجود من الصفات التي رسمها الشاعر ابن الدهان الموصلي لصلاح الدين الأيوبي، إذ قال[١]:

جَوادٌ بالبلادِ وما حَوتْه إذا جادوا بألبانِ اللِّقاحِ

وأَبْلج يَسْتهينُ الموْتَ يلقى بِصفْحةِ وجْهِهِ حدَّ الصِّفاحِ

ويخْشى مِنْ دنوّ العَار مِنْه ولا يخشى من الأجَلِ المُتاحِ

وقَوّال إذا الأبطالُ فرَّتْ مكانك ثَبْتة ما مِنْ بَراحِ

كان صلاح الدين الأيوبي (جوادًا) كريمًا سخيًّا، وجاءت هذه اللفظة للدالة على الحدث مع الثبات في الزمن؛ ليظهر كرم يديه بما يملك، إذ يجود بأثمن الأشياء، وغيره يجود بألبان اللقاح، فالقائد المسلم ((مصدر خير ويمن وعطاء؛ لرعيته في الوقت الذي هو فيه مصدر شدة وبأس على الأعداء))[٢]، وتكشف صورة التضاد (يخشى، ولا يخشى) حرصه على المروءة، فلا تدانيه مثْلبة تقدح أخلاقه، ولا يخشى الموت في الوقت نفسه، وهو الشجاع المحارب الذي لا يفرُّ في ساحات الوغى، عندما تهزم الأبطال إذا حمي الوطيس، وفي ذلك دلالة على حبه الموت الذي يهبه الحياة الكريمة، باستعمال الأفعال المضارعة (يستهين، ويلقى، ولا يخشى)، لديمومة الحياة في المستقبل.

ويرسم الشاعر ابن الدهان الموصلي صورة لبني أيوب جميعهم، ثم يخصص صلاح الدين الأيوبي، بتصويره من زاوية شخصيةٍ بجمال وجهه ونضارته وكثرة كرمه، فقال[٣]:

مِن النَّفرِ الذين إذا تحلّوا أَعادوا الليلَ أَحْلا من صبَاحِ

أضاءَ الدَّهر بعد دُجاه نُورًا يَلوحُ على وجوهِهم الصّباح

(١) ديوان ابن الدهان : ٦٣.

(٢) أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي: ١٣٠ .

(٣) ديوان ابن الدهان : ٦٤.

تَفــيضُ بُطــونُ راحَــتِهم نَــوالًا   ويَسْــتلِمُ المُلــوك ظُهــورَ رَاحِ

فإذا ظهر صلاح الدين الأيوبي في الليل، فإن وجهه من الصباح أجمل، يضيء الليل بنوره ويأمنه الناس لعدله وقوة سلطانه، ويردفها الشاعر بصورة الكرم، إذ تفيض أيديهم (بني أيوب)، بالكرم والعطاء ((أنتم يا بني أيوب أيدكم آفة نفائس الأموال))[1]، إذ إن يد صلاح الدين الأيوبي مصدر الكرم واعطاء.

ويصور الشاعر صلاح الدين الأيوبي كريمًا حكيمًا رشيدًا يسخر ماله في دروب الخير، فقال ابن الدهان الموصلي[2]:

مُلــوكٌ جُلّهــم مُغْــرًى بظلْــم   ومَشْــغولٌ بِلَهــوٍ أَوْ بِــراحِ

يــروا الانْفــاق فــي الخيْــرات خُسْــرًا   وأَنــتَ تــراهُ مِــنْ خيْــرِ الرّبــاحِ

هُــمُ جَمعــوا، وقــد فرَّقــتَ لكــنْ   جَمعْــتَ بــه الرّجــالَ مــع السِّــلاحِ

وكــم نَتَجــتْ حُــروبٌ أَلْقحَتْهــا   سَــيوفُكَ والنّتــاجُ عِــن اللّقــاحِ

وكــم لِظُبــاكَ مــن يــوم اغْتبــاقٍ   مِــن الأَعــداء أَو يــوم اصْــطباحِ

وكــم ذلّلــتَ مــن مَلِــكٍ عَزيــزٍ   وكــم دَوَّخــتَ مِــن حــيٍّ لَقــاحِ

استعمل الشاعر الثنائية الضدية في إبراز صورة صلاح الدين الأيوبي، فالإنفاق / الخسران عند الملوك الذين ينفقون مالهم في (الظلم واللهو والخمرة)، لكنَّ الإنفاق عنده بناء للدولة وقوة (الرجال مع السلاح)، فالسلاح وسيلة من وسائل ((الحياة والقدرة الفاعلة في تحقيق النصر، والأداة المتحكمة في تغيير الواقع))[3]، فكانت حروبه حروب نصر وتحرير مع أعدائه الصليبيين، وكانت ثمرة إعداد الرجال وشراء السلاح ، أن دانت له الملوك والأقوام، فحروبه تلقح

(١) ثمرات الأوراق: ٢/ ٥٨ .

(٢) ديوان ابن الدهان : ٦٤_٦٥.

(٣) صناعة السلاح عند العرب: د. نوري حمودي القيسي، مجلة دراسات الأجيال، المجلد(٢)، العدد (١)، لسنة ١٩٨١م، ٦٣ .

النصر والخير – عادلة – ، وحروب خصومه عقيمة –باطلة–، ووظف الشاعر الخطاب لصلاح الدين بالمفرد للتفرد (أنتَ)، يقارنه بالجمع (الملوك)، فيظهر تفوق صورة الفرد على الجماعة من الملوك، كما كشف توظيف الجمع (السيوف، والحروب، والأعداء)، كثرة حروبه واستمرارها، إذ شكلت (كم) الخبرية إشارة واضحة إلى قوة صلاح الدين وشجاعته في القيادة التي فرض بها سيطرته على بلاد الشام ومصر.

وبيَّن الشاعر ابن الدهان الموصلي كرم صلاح الدين الأيوبي ومجده، إذ قال[١]:

صَحِيحٌ صَرِيحٌ مجدُهُ وفِعَالُهُ تَصدَّق فيهِ المدْحُ وهو صَحيحُ

لَهُ هزّةٌ عند المدائِح للنَّدى كما اهْتزَّ غُصْنُ البان وهو مَرُوحُ

حييٌّ غَضيضُ الطَّرْف عن كلِّ محرم ولكنَّه نَحوَ العَلاءِ طَموحُ

شُجاعٌ لَدى الَهيْجا جَبانٌ عن الخَنا كَريمٌ على العِرْض المصُون شَحيحُ

جعل الشاعر صورة الكرم وأطرافها، تكشف الفعل الصائب لصلاح الدين وقوله الصحيح في (الرأي والمشورة والقوة)، ومجده الصريح في (الطموح والإرادة)، والتفاعل النفسي مع المديح، والتواصل مع الواقع بالشعر، والحركة وغض الطرف بوعي أخلاقي، والإقدام والشجاعة، فهو شجاع مغوار في البأس، وجبان عن الخنا والمثالب، فالسماحة شيمته والعفو خلقه، وتلك صفات المروءة فيه، فالمروءة ((ترابطت ترابطًا وثيقًا مع شجاعة البطل))[٢]، إذ إن أفعاله صحيحة صريحة بين الناس لا كذب فيها ولا رياء، بدلالة رد العجز على الصدر (صحيح)، وأثبتت صورة التشبيه (كما اهتز غصن البان) أن له هزة عند المدائح كما يهتز الغصن بالريح دلالة على كثرة كرمه ودوامِ جوده، ، وقد استعمل الشاعر ألفاظ التضاد (شجاع، وجبان)، و(كريم، وشحيح)،

(١) ديوان ابن الدهان : ١٧٠ .

(٢) البطل في شعر الحروب الصليبية: ٧٥ .

و(الخَنــا، والحيــاء)، ليظهــر الصــورة جليــة عبــر دلالات يستحضــرها للمتلقــي فــي ذهنه.

* * * * * * *

كشــف البحــث تــرابط الصــفات وتعــانق المعــاني فــي صــورتي الشــجاعة والكــرم فــي رســم صــورة صــلاح الــدين الأيــوبي فــي شــعر ابــن الــدهان الموصــلي، ويــدل هــذا علــى عدلــه فــي البــذل للرعيــة، وقبــل ذلــك قوتــه فــي كســر شــوكة الصليبيين، فكانت يده مصدر تلك القوة والعدالة في صورته.

وظهــرت قــدرة الشــاعر بــربط المعــاني والــدلالات وتوليــد بعضــها مــن بعض فـي تشـكيل صـورة صـلاح الـدين، وكشـفت اللغـة الشـعرية براعـة الشـاعر فـي التصــوير، إذ وظــف ألفاظًــا حربيــةً بجملــه الشــعرية؛ فكشــفت لغتــه الشــعرية جمــال الأسلوب ووضوح المعنى ودقة التراكيب وألفاظها.

وتــرد أســماءَ الممــدوحينَ – فــي التــراث الشــعري – تحمــل دلالات معنويــة وإيحــاءات موضــوعية فــي الكــرم والشــجاعة؛ لصــياغة صــورة صــلاح الــدين الأيــوبي، وتقريبها من خيال المتلقي.

The Image of Salahedin AlAyoubi in The Poetry of Ibn Addahhan AlMousili (Died 581 H)

Lecturer Dr. Jarjees Aakob Abdullah Arrashidi

Abstract

The image of Salaheldin Alayoubi in the poetry of Ibn Addahhan Almousili reveals descriptive scenes, and truthful events deepen the objective and the artistic experiment of the poet which evoke his reaction and imagination in exploring the personality of Salaheldin Alayoubi and its real dimensions, when he made the images of courage and generosity as main pivots in his poetry, then the images went together and associated in presenting the image of Salaheldin. Accordingly their semantic references were varied to evoke the visions of the audience and excite him by forming the image of Salaheldin Alayoubi and show its own dimensions that is accomplished poetically and harmonized actually. So the poet presented an associative and communicative image between the image of courage and the image of generosity, then to be imagined mentally by the audience then the audience itself apply it on the reality.